الكفاءة السردية في التراث الشعبي.

الأستاذة: راضية بن عربية

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف–الجزائر– .

التراث الشّعبي– في رأي أغلب الدارسين – هو الأكثر دلالة على روح الشعب وأعماقه وأصدق تصويرا لأفكاره ومعتقداته الراسخة والتي لم تنل حظها من العناية والتنقيب والبحث ولاسيما في مجال النصوص السردية أو ما يعرف بالقصص الشعبية بشكل أدق وهذا موضوع متشعب لا يمكن حصر جوانبه بالصورة التي يستحق وزيادة على ذلك لما يتسم به هذا السّرد من أهمية في طيات النّصوص الشعبية، فهو يصدر من مرسل إلى مرسل إليه في نظام لا يخلو من الكفاءات – Compétences narratives – وتختلف باختلاف النسج الفني والملفوظات السّردية – Ennonimes narratives – والتي تتحقق فيها الحقول الدلالية لكل ملفوظة سردية، فماهي هذه الكفاءات ؟ وفيم يمكن حصر هذه الكفاءات السّردية لكل تراث شعبي ؟

ونقصد بالكفاءة هي تلك القدرة على الإنتاج والإبداع، وذلك باعتمادها على الفعاليات المخزنة في الملكة اللّغوية لدى كل فرد ومن بينهم السارد.

كما أنها تشتمل على أربعة أبعاد رئيسية هي:

1- الكفاءة النّحوية: وذلك فيما يتعلق بصحة الأداء النحوي والصرفي.

2- الكفاءة الاجتماعية: والتي تتضمن السياق اللغوي والاجتماعي الذي يحصل التواصل بما في ذلك من الأدوار الاجتماعية والمعلومات التي يشارك بها السارد ولتحقيق أهدافه المرادة، ومن أهمها: الرغبة في إبراز معتقداته أو أفكاره في أمور الحياة وبعض القضايا الاجتماعية وهنا كثيرا ما ينتهز السارد قصة أقسام الخرافة الدينية.

3- كفاءة الخطاب: وهي تشير إلى ترابط المعاني بين المشاركين في التواصل وتحليل الخطاب.

4- الكفاءة الإستراتيجية: ويقصد بها استراتيجية التكييف التي يستخدمها المتصلون فيما بينهم.

وعَوْد الأمر هنا إلى طبيعة السارد في تحديد الكفاءة الخاصة به، والتي تجمع عوامله الأربع:

1- عالم حقيقي: هو عالم المؤلف (السارد) وهو عالم واقعي.

2- عالم الكتابة: ويعد السارد هنا صانع القول، ويكون أسلوبه كتصويره لهذا العالم، ساذجا واضحا، واقعيا يعتمد على الإيجاز الكافي لبث الحيوية التي لا مناص منها في قصة المغامرات الشعبية، وينجلي هذا في لغة السرد والحوار.

فلغة السارد تكون لغة غنية وبسيطة معا، تتدفق في المعنى دون أن يثقلها بالزخرف اللفظي المصبغ بصبغة أدبية وحرفية، وبذلك تكون لغة دقيقة المعنى يفهمها الشعب ويتذوقها ويتلذذها.

كما أن الإيجاز قد اتسم به المخطوط الشعبي الذي يزداد خاصة في الرواية الشفوية.

3- عالم التلفظ السردي: لاشك في أن استعمال السارد للأسلوب المباشر الذي يزيد قوة ووضوحا في عمله الفني، حيث أن المتلقي يميل إلى الوضوح - فهو أمي في الغالب — لا تهمه التراكيب المليئة بالزخرفة اللفظية .

فالطابع المضفي على النصوص السردية كله يرتكز على سهولة الكلام الذي لا يعوق على متابعة التعبير عن جزئيات القصة أو الرواية أو الحكاية أو الأسطورة ... وهكذا يمكن أن يعد السارد واضح اللغة فصيح اللسان وإن استعمل اللهجة المحلية وبخاصة القريبة من لغة المجتمع أو المتلقي.

فإن هذه المزايا تجعل قضية السارد نفسَها سهلة الانتشار أكثر من غيرها وذلك ما يدل على أهمية السارد في رواجها، فرواجها يقلّ أو يكثر حسب فطرته وفنه القصصي.

4 - عالم الخيال: كان الإنسان البدائي يعيش في عالم مملوء بالألغاز لم يكن في إمكانه إدراك كنهها، وأطلق العنان لخياله ليفكر ويبدع فكانت لغته مبنية على الصور الخيالية، كان يخلق الحياة في كل مكان يسميه، وفي أثناء هذا التطور، فتح السّارد بابا واسعا للفرار من واقعه، فوجد في عمله الفني تعويضا له يحياه بحيث يتلاءم مع رغباته ونزعاته، فاستطاع أن يخلق عالمه الخيالي فوجد فيه كل ما تتطلبه نفسه من غنى ولهو ومتاع.. فهذا الخيال أثناء نقل العمل الفني الاجتماعي نوعا من الإزاحة النفسية للسارد إما إفراغا أو إشباعا وهذا بدوره يحقق متعة فنية بطريقة ما.

وعلى العموم فإن الكفاءة بمختلف أقسامها تعتبر الركيزة الأساس لدى السارد لبناء قاعدة ذات معطيات خاصة به أثناء إنتاجه الأدبي، وإن كنّا قد أوضحنا بعضها فقط فهي أوسع من ذلك ولاسيما تلك التي عنيت بالدراسة من طرف أيادي غربيّة أوجدت لها اللّبنة والقواعد وأفردت لها مباحث وبحوثا.

قائمة بعض المصادر والمراجع:

1- في عالم النص والقراءة – عبد الجليل مرتاض – ديوان المطبوعات – الساحة المركزية – بن عكنون – الجزائر – ط : 02-2007.

2- القصة الشعبية الجزائرية ذات الأصل العربي – روزلين ليلى قريش ديوان المطبوعات الجماعية – د ط – 2007.

3- تحليل الخطاب - عبد العالي بشير.